دمشق:

وقف هِرَقْلُ على هضبات أنطاكية يكفكفُ دموعه، وتُبدِّد الريحُ صوته المحشرج المبحوح: السلام عليكِ يا سورية..

سلام مودِّعٍ لا يَرْجو أن يرجِعَ إليكِ أبداً!.

ونَشَرت جيوش الفاتحين أجنحتها، واصطفّت بخشوع تُصغي لنداء «الله أكبر» لأوّل مرّةٍ في فضاء دمشق في السنة الثالثة عَشرة بعد الهجرة. واستُبدل عرشُ هِرَقْل بحصير أبي عُبيدة بن الجرّاح الفاتح حتّى توفّي سنة سبع عشرة، ليخلفه عِياضُ ابنُ غَنْم الفهريّ الصحابيّ حتّى وفاته سنة عشرين، ولم تشتهر لها سياسةٌ ذات أثر، حتّى انطوى الحصير وعاد العَرشُ وحُجّابه، ولكن هِرَقْل العرب، معاوية بن أبي سفيان، الذي ساس البلاد بدهاءٍ ذي فنون بعيداً عن مركز الخلافة، ولم يكن معاوية ممّن صقله الإسلام ليُحسن قيادَ دهائه، ولم يدفعه حماسُه لهذا الدين نحو إحداث نقلةٍ نوعيّة في المجتمع باتّجاه منهاج الشريعة الإسلامية الجديدة رغم استقراره في الولاية عشرين عاماً قبل أن يكون بمحلّ الخلافة.

وإذا كان مِن حولهِ عددٌ ليس بالقليل من الصحابة الأسبق إسلاماً، والأعمق إيماناً، والأكثر وعياً لهذا الدين، وأشدّ حماساً له، فإنّ ثمّة قيود تحدّ من نشاطهم التربوي والتعليمي والتوعوي هناك، منها ما يعود إلى الوالي نفسه الذي لا يسمح بنشر ما يخالف سياسته ولو كان ذلك نصوصاً من القرآن الكريم والسُنّة النبويّة

المطهّرة ! وليس أدلّ على ذلك من قصّته مع الصحابي الجليل خامس الإسلام صادق اللهجة أبي ذرّ الغفاري، وتسييره من الشأم إلى المدينة، ثمّ نُفي إلى الرَّبَذة حتّى يموت هناك وحيداً في أرضٍ لا يسكنها بشرٌ غيره[١] !.

ومن تلك القيود ما كان مصدره عاصمة الخلافة، فحين كانت العاصمة توجّه الصحابة إلى الأمصار، كان يُؤخذ عليهم العهود والمواثيق ألّا يحدّثوا بشيءٍ من حديث النبيّ ﷺ[٢] !.

فلم تذق دمشق آنذاك حلاوة الإيمان، ولا كان لها حظٌّ ممّا تعلّمه جيل المدينة المنوّرة من مكارم الأخلاق ومعالي القيم الإسلامية الشاملة، حتّى إذا بلغت الجرأة بالوالي معاوية أن يترك تجارة الخمر حرّةً لم يجد بين أهلها مَن يُنكر عليه، ولا حتّى من بعض الصحابة الّذين كانوا معه، من هنا عُدّ صنيع الصحابي البدري العقبيّ النقيب عُبادة بن الصامت شاذّاً، لينال جزاءه من عاصمة الخلافة. ذلك أنّه ﷺ كان في الشأم فمرّت عليه قِطارةٌ من الإبل تحمل خمراً. فقال: ما هذه ! أزيت ؟ قيل: لا، بل خمر يباع لمعاوية ! فأخذ شفرةً من السوق فقام إليها وأراق ما فيها.

فأرسل معاوية إلى أبي هريرة، وكان هناك، فقال له: ألا تُمسك عنّا أخاك عُبادة ! فأتاه أبو هريرة فقال: يا عُبادة، ما لَكَ ولمعاوية ! ذَرهُ وما حُمّل.

فقال عُبادة: لم تكن معنا إذ بايعنا على السمع والطاعة، والأمر بالمعروف والنهي عن المُنكر، وألّا يأخُذنا في الله لومة لائم. فسكت أبو هريرة.

فكتب معاوية إلى الخليفة آنذاك عثمان بن عفّان ﷺ: أنّ عُبادة بن الصامت قد أفسد عليّ الشأم !.

---

(١) تاريخ اليعقوبي ٢: ١٧٢ ـ دار صادر ـ بيروت.

(٢) سنن ابن ماجة ١: ١٢، تذكرة الحفّاظ ١: ٣، ٧.

فكان قرار العاصمة على الأثر بإجلاء عُبادة من دمشق إلى المدينة، حفاظاً على (صلاح الشأم)[١]!.

فكان صلاحُ الشأم إذن على تلك الصورة، حتّى إذا رأى الوالي أنّ (صلاح الشأم) على تلك الحالة يستدعي الخروج على الإمام الحقّ الذي عُقدت له البيعة، فلا مانع من ذلك، وليسلك إليه أيّ سبيل يفي له بالغرض، فليس في مَن حوله مَن يعرف أحاديث النبيّ ﷺ التي عدّت الخروج على الإمام العادل كفراً بالله تعالى وخروجاً عن الإسلام، وليس فيهم من يعرف من هو عليّ بن أبي طالب كي يتردّد في الخروج عليه.

فمن كلام معاوية حين قدم من الشأم إلى المدينة وكانت مضطربةً على عثمان، مخاطباً عمّار بن ياسر في مجلسٍ ضمّ جمعاً من الصحابة، قوله: يا عمّار، إنّ بالشأم مئة ألف فارس كلٌّ يأخذ العَطاء، مع مثلهم من أبنائهم وعبدانهم، لا يعرفون عليّاً ولا قرابته، ولا عمّاراً ولا سابقته، ولا الزبير ولا صُحبته، ولا طلحة ولا هجرته، ولا يهابون ابن عوفٍ ولا ماله، ولا يتّقونَ سعداً ولا دعوته[٢].

فكانت وقعة صفّين، التي سبقها ورافقها وتبعها حملاتٌ من الإعلام وقلب المفاهيم زادت في بُعد مُسلمي الشأم آنذاك عن هدى القرآن والسنّة (فنشأوا على النَّصْب)[٣] لا يعرفون إلّا معاوية رمزاً وعنواناً للإسلام، وأنّ الباطل والضّلال في خلافه!.

وعاشوا على (سُنّةٍ) أَلِفُوها في سبّ عليّ عليه السلام والحسن والحسين ريحانتي

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢: ٩ ـ ١٠، الرياض النضرة ٣: ٨٤.

(٢) الإمامة والسياسة: ٤٦.

(٣) سير أعلام النبلاء ٣: ١٢٨ ترجمة معاوية بن أبي سفيان. والنَّصْبُ: هو البغض والعداء لعليّ وأهل البيت عليهم السلام.

رسول الله وسيّدي شباب أهل الجنّة !.

وازداد الأمرُ ظلمةً بعد معاوية، فيزيد، الخليفة الجديد، أشدّ بعداً عن روح الدين وأهدافه، بل عن ضروراته وأحكامه، فبعد كونه ابن معاوية، المولود في الشأم، كان قد نشأ وتربّى وترعرع بين النصارى مع أمّه النصرانيّة ميسون، حيث كان معاوية قد طلّقها بعدما أسمعته أبياتاً تُفضّل فيها عيش البادية وزوجاً من بني عمّها على عيش القصور معه، تقول في أوّلها:

لَلُبْسُ عباءةٍ وتَقَرَّ عيني ... أحبّ إليّ من لُبس الشُّفوفِ

وآخرها:

وخرقٌ من بني عمّي نحيفٌ ... أحبّ إليّ من علجٍ عنيفِ(١)

من هناك جاء يزيد إلى قصر الخلافة، ورغم أنّه عُرف جهاراً بيزيد الخمور، حليف الكأس واللهو والطيور، غير أنّه لم يجد من أهل دمشق إلّا التبريك والإجلال حين اصطفّوا ينظرون إلى موكب السبايا من آلِ الرسول، ورؤوس رجالهم مرفوعة على رؤوس الرماح، يتقدّمها رأس الحسين العزيز على الله ورسوله !.

ولم يجد منهم إلّا جنوداً أوفياء، يقتحمون مدينة الرسول، فيقتلون رجالها من الصحابة وأبنائهم، ويستبيحون الأعراض، في وقعة الحرّة المنكرة !.

وآلَ الحُكمُ إلى مروان بن الحكم وبنيه، فلم يكن أحدهم أقلّ نَصْباً من سَلَفه، خلا عمر بن عبدالعزيز الذي أظهر عدلاً واجتهد في تصحيح المسار، وحقّق الكثير،

---

(١) أعلام النساء ٥: ١٣٦.

غير إنّ مدّة حكمه القصيرة، وعودة السياسة الأُموية بعده إلى نهجها الأوّل، قد أجهز على تلك الإصلاحات وبدّد آثارها.

فعاشت دمشق أُمويّة أكثر من قرنٍ من الزمن، فبين سنتي ٢٠هـ حيث تولّى معاوية، و١٣٢هـ سنة مقتل مروان الحمار على أيدي العباسيّين، تعاقب عليها الخلفاء الأُمويّون الّذين يصفهم عماد الدين ابن كثير في أرجوزته في التاريخ، فيقول:

وكـلّهم قـد كـان نـاصبيّا   إلّا الإمـام عـمر التـقيّا[1]

فنشأ على أيديهم جيلٌ يصفه أبو سَلَمة الأنصاري على لسان صاحب له، قال: كنتُ بالشأم، فجعلتُ لا أسمع أحداً يُسمّي عليّاً ولا حسناً ولا حُسيناً، وإنّما أسمع: معاوية ويزيد والوليد. فمررتُ برجلٍ جالس على باب داره، فاستسقيتُه، فقال: يا حَسَن! اسقِه.

فقلتُ له: أسَمّيتَ حَسَناً؟.

فقال: إي والله، إنّ لي أولاداً أسماؤهم: حسن وحُسين وجعفر، فإنّ أهل الشأم يُسمّون أولادهم بأسماء خُلفاء الله، ولا يزال أحدنا يلعن وَلَدَهُ ويشتُمه، وإنّما سَمّيتُ أولادي بأسماء أعداء الله، فإن لعنتُ فإنّما ألعن أعداء الله[2]!.

ودَخل دمشق الحافظ النسائي في سنة ٣٠٢هـ فوجد أهلها مُغالين في بني أُميّة، مُفرطين في النّصب، فأثاره ذلك فكتب كتاباً في فضائل أمير المؤمنين عليّ عليه السلام وأذاعه بينهم، فثاروا عليه يطالبونه أن يكتب نظيره في معاوية، فأجابهم بقوله: لا أجد له فضيلةً إلّا «لا أشبعَ اللهُ بطنك»! فضربوه وسحقوه بأقدامهم سحقاً عنيفاً

---

(١) البداية والنهاية ١٣: ٢٢٢.

(٢) معجم الأدباء ١٤: ١٢٨، سير أعلام النبلاء ١٠: ٤٠٢.

كان سبباً في وفاته[١].

وقع هذا مع الحافظ الكبير النسائي بعد ١٧٠ سنةً من سقوط الدولة الأُمويّة!.

فدمشق لم تستقم للقيادة العبّاسيّة، بل ظلّت مضطربةً عليهم طوال عهدهم، وقامت بها حركات فصلتها عن بغداد العاصمة العبّاسيّة فجاء أحمد بن طولون من مصر ليخمدها فوجد الفرصة مؤاتيةً له لأن يستقلّ بها هو الآخر وينشئ المملكة الطولونية في الشأم ومصر سنة ٢٦٦ هـ حتى أزاحه القرامطة من دمشق سنة ٢٩٠ هـ، ثمّ هُزموا بعد عام واحدٍ على يد طغج التركي، ثمّ انفصلت دمشق مرّة أُخرى على يد كافور الإخشيدي العبد الذي حكم مصر وسوريا حكم الجبّارين، وخلفه ابنه أحمد أبو الفوارس الغلام ابن الحادية عشرة الذي هُزم سنة ٢٩٦ هـ على يد جوهر القائد الفاطمي القادم من المغرب لتدخل دمشق تحت الحكم الفاطمي حتّى سقوطه سنة ٥٦٧ هـ.

غير أنّ ذلك كلّه لم يغيّر من ولاء دمشق الأُموي، حتّى تجد حافظها ومؤرّخها الكبير ابن عساكر ـ المتوفّى سنة ٥٧١ هـ ـ يعدّ النيل من مروان أو بنيه غلوّاً في التشيّع[٢]!.

تلك كانت صورة دمشق، وأمّا تفصيل حالها في العهود اللاحقة فيأتي خلال الحديث عن سمات عصر ابن تيميّة.

---

(١) وفيات الأعيان ١: ٧٧ ترجمة الحافظ النسائي أحمد بن عليّ بن شعيب.

(٢) انظر: سير أعلام النبلاء ١٤: ٥١١، وتقدّم في ترجمة أبي عروبة.